

لامية الشكراتيسي بين جماليات التفاعل النصي والانمياز اللغوي في قصيدة المدحة النبوية-قراءة أسلوبية جمالية-

Al Shakratisi's Lamiya between the aesthetic of textual interection and
linguistic excellence in Al Madkha al Nabiwi's poem

طالبة دكتوراه: مريم مقيدش⁽¹⁾

جامعة: محمد خيضر بسكرة (الجزائر)

mekmeryem@gmail.com

الأستاذ المشرف: د. معاش حياة⁽²⁾

جامعة: محمد خيضر بسكرة (الجزائر)

مخبر: أبحاث في اللغة والأدب الجزائري

تاريخ النشر: 2021/06/25

تاريخ القبول: 2021/05/26

تاريخ الإرسال: 2021/04/24

ملخص البحث:

ينصرف هذا البحث إلى العناية بتحليل نصّ أدبيّ شعريّ مداره حول مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وتبيان شمائله الفضلى منذ ولادته إلى وفاته، ولا مراء أن يلقي المتلقي وهو يتلقف هذا الخطاب الشعريّ زحماً لغوياً أسلوبياً، متجليّة له شتى الظواهر اللغوية الأسلوبية التأثيرية، والتي ألبسها الشاعر كساء لغوياً مؤسلباً أذا يترهياً من خلاله الخطاب حيناً فحيناً بين الغاية الأدبية اللغوية العليا والغاية الإنسانية النبيلة، وقد عمد الشاعر محمد بن عبد الله بن يحيى الشكراتيسي (ت466هـ) إلى تمثيل عدد من الحقائق التاريخية الإسلامية الخالد بعضها في أي القرآن الكريم، أو حتى في كتب السيرة النبوية، وتنسيجها في قالب أدبيّ مسهما به التأثير في المتلقين حيناً، أو التشويق حيناً آخر، ولم يغفل أبداً عن

* المؤلف المرسل

إظهار مدى حبه للنبي المصطفى في مختلف أعماله الأدبية التي عنيت باستظهار مكارم السيرة النبوية على وجه الخصوص، ولعل أبرزها: "لامية الشقراطيي".

وعطفا على ما ذكرناه، فإلى أي مدى وفق الشاعر محمد بن عبد الله بن يحيى الشقراطيي في تنسيق عمل أدبي شعري يجلي من خلاله تميزه اللغوي الأدبي من جهة وتبيان سعة تعلقه الشديد بالنبي المصطفى عليه الصلاة والسلام من جهة أخرى؟ وما الغاية العليا التي حققها عنصر التفاعل النصي في تنسيق "لامية الشقراطيي" والتأثير في المتلقي معا؟

الكلمات الدالة:

لامية الشقراطيي، التفاعل النصي، التميز اللغوي، المديح النبوي، السيرة النبوية، المتلقي، الأسلوبية.

Summary:

This research focuses on analyzing a literary and poetic text that revolves around praising the messenger peace upon him and granthim peace and showing his best virtues from his birth to his death, and there is no doubt that the recipient will deny while he is receiving this poetic speech and linguistic impetus that is manifested by various linguistic and stylistic phenomena. Dressed by the poet as a beautiful linguistic mischief appears through the discourse and shows the purpose of both literature and the noble of humanity. The poet Mohamed ben Abdelah ben Yahia Al Shakratisini (466) intended to represent several facts from the Islamic history, some of them are enternal quoted from the verses of Quran, other from books of Sira weaving them into a literary templet, which contributed in the impact of the recipient.

He has never neglected to show the extent of his love for the chosen prophet in his various literary works that were mainly concerned with revealing the virtues of the prophet's biography in particular, the most prominent among them is "Lamia". In addition to what has been said before, to what extent the poet has coordinated in weaving a literary and poetic work through which he expresses his linguistic distinction and shows his amplitude toward the messenger peace upon him, and what purpose has the textual interaction component achieved in embellishing and influencing the recipient.

Key words:

Textual interaction, linguistic distinction, propheticpraise, propheticbiography,
recipientstylistic .

توطئة:

ليس من تباين ألبته بين الباحثين إزاء مسألة ثبوتية أن يكون الأدب هو السجل التاريخي لأي أمة كانت، وهو في الآن نفسه مرآتها العاكسة المجلية لسائر أحوالها وشؤون حياتها، وذلك مذبذب الأدب للوجود، وهكذا ألفينا الأدب منذ عهود غابرة إلى يومنا المعيش هذا. فالأمة الغربية القديمة مثلاً واليونانية على وجه الخصوص كانت تصوّر حياة شعبها من خلال المسارح تارة، أو من خلال الأشعار الملحمية والتراجيدية والأعمال الأدبية الأخرى حيناً آخر، فبقيت مع مرور الزمن هذه الأعمال الفنية بمثابة سجل تاريخي أو لنقل فهرس هذه الأمة.

ولأجل هذا كلما مضى القراء بحثاً في أغوار أي أدب من الآداب إلّا ووجدنا أوجه التباين فيه بارزة، وحتى أن نقط التلاقي بين سائر الآداب لا تكاد تخفى على الناقد الحذق، ولا مشاحة حينئذ أن يغدو "لكل أمة أدب يختلف عن أدب الأمم الأخرى. وأدب كل أمة منتزع من: طبيعة إقليمها، وتاريخها، وخصالها، وملوكها وسوقها، وعقلائها وسخفائها وصلحائها ومجرميها، ومن نظامها السياسي، وعلى الجملة من كل شيء يتصل بحياتها"¹، وهذا لا يعني أنه ثمة قطيعة مطلقة بين الآداب على اختلافها، بل هي متشكلة في عديد المواضع.

وفي نفس السياق يطرح عبد الملك مرتاض تساؤلاً جوهرياً يتجلى من خلاله ماهية الأدب، وكيونته، وطرق انبثاقه، حاصراً كل ذلك في سؤاله: "هل يستطيع الأدب أن يكون شهادة على الناس، والتزاماً معهم، وامتداداً لالتعاجات وما يضطرب في طواياهم، أم لا يعدو كونه لغة شاحبة الدلالات، طائفة الأصوات، جميلة العبارات، بديعة النسوج، ثم لا شيء من ذلك، ولا شيء غير هذا الشيء؟"²، أوليس الأدب كما توارثه الدارسون مجموع التناجيات اللفظية الحاملة في ثناياها سائر القيم الفكرية حيناً، أو حتى القيم الاجتماعية الثقافية العقائدية حيناً آخر مختلفة متباينة من كل أمة إلى أخرى.

(من أكثر المفاهيم الأدبية تداولاً في تضاعيف المصنّفات Littérature إن مفهوم الأدب)
الأدبية، ومنها المتطرقة لقضية مدى ارتباط الأدب بالأمة، ودور هذا الأخير في ترسيخ تاريخها، فالأدب،
إن "عمل منتج دال، مشروط اجتماعياً وتاريخياً بملازمة نشأته وبفاعليته الدلالية، من حيث أنه عمل
منتج دال، إضافة إلى الواقع، وهو ليس إضافة كمية بل إضافة كيفية، ذلك أنه ليس مجرد عمل يكرر
الواقع أو يقلده وإنما هو بطبيعته الإبداعية إضافة تجديدية إلى الواقع، وقيمة مضاعفة إلى هذا الواقع"³،
فالأدب، إذن، مرتبط بأمته وتاريخها ارتباط وثيقاً.

وكثيراً ما ارتبط مسمى الأدب بعنصر الإبداع وغايتها التأثيرية في المتلقي، ومن هذا المنطلق
صار الأدب "كلّ ما يثير فينا بفضل خصائص صياغته إحساسات جمالية، أو انفعالات عاطفية أو هما
معاً"⁴، وما ارتباط الأدب بالإبداع والأسلوبية إلا منوطاً بطرق صياغته، وصور تشكّله، فليس كلّ الأدب
إبداعياً، بل إنّنا نلقي تفاوتاً كبيراً ما بين أدب كلّ أمة وغيره من الآداب الأخرى. ولا جرم أنه حينما
نتحدث عن الأدب حتماً سيكون حديثنا عن لغته، إذ تمثّل اللغة "المادة الأولى التي يستمد منها الأديب
طرائق نسوجه حين يبدع لوحته، أو لوحات أدبية، في عمله الإبداعي، لا ينبغي لها، إذا رقيت وحسنت،
أن تقل جمالاً وتأثيراً عن لوحة الرسّام العظيم"⁵، وهذا أول موالج التفاوت بين الآداب جمعاء، وما ذلك إلا
لاختلاف لغة كلّ أدب عن غيره.

ولما كانت اللغة أحد أبرز نقط الاختلاف بين الآداب، فلا ضير إذن أن تكون اللغة بنت البيئة
التي تحضنها، فلا لغة البداوة كلغة الحواضر، ولا لغة الحواضر تتأخر لغة أهل البادية، وليس لذلك علّة
يبرز من خلالها مدى تفاوت تلكم اللغة عادة ما بين أبناء الأمة الواحدة، و"من الحقائق في الدراسات
الأدبية أنّ الأديب ابن بيئته، يتأثر بها ويؤثر فيها، فالبيئة هي مسرح الأديب الذي يستقي منه آيات فنّه،
لا كما هي عليه في الواقع بل كما رآها بوجوده وفكره وعائشها وتفاعل معها، وعبر عنها بصدق في ثوب
موشى بالألفاظ والتراكيب والصور المتألّفة المتناسقة المعبرة المؤثرة في النفوس، مظهرها معاني جديدة في
أشياء يراها كلّ الناس"⁶.

صور التناص واستمداد الشاعر من الروافد التراثية في لاميته:

قصيدة الشَّقرطيسيّ هي عبارةٌ عن لاميةٍ من بحر البسيط أنشدتها لما حجَّ في المدينة المنورة، وقد انحصرت في مدح الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام، وذكر سائر شمائله المحمديَّة الفضيَّلة، فقد عمد الشَّاعر في أكناف قصيدته باستعراض وقائع السَّيرة النَّبويَّة، وحياة الدَّعوة الإسلاميَّة منذ أنبلاج فجرها، إلى أن عمَّت أقطار المعمورة، وفق أسلوبٍ شعريٍّ جميلٍ متفنن الإبداع فيه، وكان مجموع أبياتها 133 بيت شعريٍّ⁷، ومما تمَّ تداوله في كتب التَّاريخ الأدبيِّ حول لامية الشَّقرطيسيّ ما ذكره الرَّحالة أحمد بن عمَّار الجزائري (ت- نحو 1205هـ-1790م): "هي من القصائد العظام، البديعة النَّظام، الرَّائقة المعاني، الوثيقة المباني، وهي من الطَّراز الأوَّل الأوَّل، وعليها في هذا الباب المعول، وقد رأيت أن أثبتها هنا برمتها، لانقياد البلاغة في أزمتها، ولكونها فتحت للفتان أبوابا، وأحكمت من نسج البديع أثوابا، وطار صيتها في الآفاق، وانهقد على بركتها الإجماع والاتِّفاق..."⁸، وهذا بيانٌ بأنَّ لامية الشَّقرطيسيّ عملٌ شعريٌّ بديعٌ، ولأجل هذا استأثرت بنصيبٍ من الدَّراسة من لُذُن الدَّارسين بغية تحليل مختلف بُناها اللُّغويَّة المُهيكله لها تحليلا يُبرز مدى قيمتها الأدبيَّة الجماليَّة إلى يومنا هذا.

لأبد، ونحن نعلم إلى تحليل مواضع التَّناس المتراصة في مظان لامية الشَّقرطيسيّ من أن (أولا، فلقد كَثُرَت التعاريف اللُّغويَّة التي تصبَّ في وعاء Intertextualité انتوقف عند عنصر التَّناس) مصطلح التَّناس من لُذُن النِّقاد المحدثين وحتَّى المعاصرين على السَّواء، ويبقى من أبرز ما صادفناه من (فهو الأقرب فهما، فمن Julia Kristiva لتعاريف إزاء هذا المصطلح النَّقديّ، ما ذكرته جوليا كريستيفا) منظورها النَّقديّ الحضيف أن التَّناس ما هو إلَّا "ترحال للنصوص وتداخل نصيٍّ، ففي فضاء نصٍّ معيَّن تتقاطع وتتناهى ملفوظات عديدة متقاطعة من نصوص أخرى"⁹، وقد يتداخل هذا المفهوم المحدّد لمعنى آليَّة التَّناس مع ما ورد في تعريف نهلة فيصل أحمد للتَّفاعل النَّصيّ، وهو ما يجلي مدى التَّداخل الكبير بين التَّناس والتَّفاعل النَّصيّ من حيث التَّقديم المفهوميّ لدى كثير من النِّقاد، فالتَّفاعل النَّصيّ حسب ما قدَّمته متداخل ومعنى شعريَّة النصّ حسب فهمها النَّقديّ، فيتماهى حينئذٍ مفهوم الشعريَّة والتَّفاعل النَّصيّ في بوتقة واحدة ويغدو مفهومهما متقاربا، ويصير مفهوم التَّفاعل النَّصيّ متمثِّلا في "تلك الممارسات التي يقوم بها النصّ مع نصوصٍ أخرى قديمةٍ وآتيَّة، تتحدَّد عمليًّا بعلاقة هذا النصّ مع النصوص التي توازيه وتذيِّله ويومئ إليها وتقطن منته أو توزع في فضائه، تنقريّ معه في النصوص التي تتجّه إليه شارحةً ويتجّه إليها واصفاً"¹⁰، وهذا ما يشير بدلالة واضحة بأنَّ عمليَّة التَّفاعل النَّصيّ إنّما تتصلّ اتصالاً وثيقاً

من حيث مدلولها المصطلحيّ مع مفهوم التّناس، والذي يراد به في شكله العام ميلاد نصّ جديد من نصّ أول قديم، فيشكلنا نصّا ينماز بلغة شعريّة تسترعي انتباه المتلقّي وتأسره.

تعجّ لاميّة الشّرقاطيسيّ باستمدادات الشّاعر الكبيرة من الرّوافد التّراثيّة، وقد تنوّع هذا التّناس ما بين التّاريخيّ والدينيّ في كثير من أبيات القصيدة، وما ذلك إلاّ لانبثاق شخصيّة الشّاعر المتعلّقة بالدين الإسلاميّ، وتنوّعت توظيفات هذه الرّوافد ما بين القرآن الكريم، والحديث النّبويّ الشّريف، ومن الكتب التّراثيّة التي روت السّيرة النّبويّة، ولا جرم أن القارئ اللّامح للاميّة الشّرقاطيسيّة في مدح خير البريّة يجد نفسه أمام نموذج شعريّ منفرد بخصائصه في الأدب المغربيّ القديم، وفي أدب المدحة النّبويّة بخاصّة، فطالما كانت تمثّل تلكم القصيدة مصدر إلهام لكثير من قصائد المديح النّبويّة التي أنشئت بعدها، ولعلّ ما زادها بعدا أسلوبياّ جمالياّ شعريّة توظيفه لعنصر التّفاعل النّصيّ في قصيدته هذه، فقد ألبسها زيا فنيا به يسترعي انتباه المتلقّي.

أ/ شعريّة التّناس مع القرآن الكريم:

إنّ الرّجوع إلى أبرز المواضع التي يتجلّى فيها عنصر التّفاعل النّصيّ في لاميّة الشّرقاطيسيّ لعلّنا نجد أنفسنا أمام توليفة شعريّة آسرة قد استمدّت حرفها من آي القرآن الكريم، فبدا لنا عيانا مدى استمداد الشّاعر مرجعيّته الفكرية إبان نظمه لقصيدته من التّراث الدينيّ، وخاصّة من القرآن الكريم، لما له من الحمولة التّأثيريّة الكبيرة في نفسيّة المتلقّي، ولتبيان ذلك الأمر نقف عند عدد من الأبيات الشعريّة الوارد فيها عنصر التّناس مع عدد من آي الذّكر المجيد، ومن ذلك قول الشّاعر في هذه البيت الشعريّ الرّنان الذي استهلّ به قصيدته:

الحمد لله ممّا باعث الرّسل

هدى بأحمد ممّا أحمد السّبل¹¹

تشارك مختلف قصائد المديح النّبويّة في استفتاح القصيدة، فتكون في أغلبها مبتدئة بالحمدلة أو الشّكر لله جلّ جلاله، فمثلا، وهنا، نجد الشّرقاطيسيّ قد استهلّ لاميّة بشكر الله تبارك وتعالى والتّناء عليه وعلى فضائلها الجمّة علينا، وشكره جلّ جلاله أن أرسل رسوله محمد صلى الله عليه وسلّم رسولا نبيا هاديا للنّاس كافّة، فألفينا هذا التّشكيل الشعريّ يناظر ظاهرا ما أنزل من الحقّ من ربّ العالمين: ﴿فالذين

آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النّور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون¹²، فالشّاعر جعل من هذه الآية الكريمة مستهلّ قصيدته التي نظمها مدحا لخير الأنبياء، وما ذلك إلّا لتبيان فضل رسول الله على العالمين كلّ، وفضله الجزيل على أمّته، إذ هو نور يهدي به الله من اعتصم بحبله المتين، وامتنل لأوامره، وانتهى عن نواهيه.

ومن يراجع لاميّة الشّقراطيّ يلحظ فيه جليّا كيف أحصى الشّاعر معجزات النّبي صلّى الله عليه وسلّم، وفضائله الجمّة، فمنها ما حدثت في حياته، ومنها ما حدثت قبل ولادته، وكان من أبرز ما أشار إليه الشّاعر في قصيدته من معجزات حدثت قبل ميلاده، إخبار سيدنا عيسى عليه السّلام في الإنجيل بمجيء نبي بعده اسمه أحمد، فكان هذه إحدى أجلّ المعجزات التي سبقت ميلاد النّبي المصطفى، وقال الشّاعر وصفا لهذا الموقف:

إنجيل عيسى بحقّ غير مفتعل¹³ تورا موسى أتت عنه فصّدّقها

ولقد كان من بين الإحياءات التي وظّفها الشّاعر المتعلّقة بإرهاصات النّبوة (تورا موسى، إنجيل عيسى، أخبار أخبار أهل الكتب، سقوط صرح كسرى، ...)، وإنّ من بين هذه المعاني ما هو مستلهم من التّنزيل المجيد ومتقاطع معه، قال جلّ جلاله في إحدى أجلّ معجزات النّبي المختار عليه الصّلاة والسّلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ النُّورِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾¹⁴، فلا جرم أن يكون هذا الاقتباس من القرآن الكريم اقتباسا يحمل في ثناياه أبعادا تأثيريّة جماليّة يتلقّاها المتلقّي بنوع من التّأثّر البالغ، ففي البيت تقريب جليّ ما بين الأديان السّماويّة واشتراكها في تأدية الرّسالة الواحدة، فالتّورا والإنجيل والقرآن الكريم إنما أنزلت لنشر رسالة التّوحيد بالله الأحد الصّمد والنّهي عن الشّرك به، فبين البيت الشّعريّ المتقاطع مع الآية الكريمة هذه الصّورة وبشكل جماليّ فنّيّ تأثيريّ بالغ في المتلقّين.

يظل القرآن الكريم من أبرز المشارب أو المناهل التي نهل منها الشّقراطيّ في "لاميّته"، فمثّلت ظاهرة الاقتباس مع آي الذّكر المجيد ظاهرة أسلوبيّة جماليّة، ألّبت القصيدة كساء لغويّا جماليّا بديعا، ونحن ندرك بأنّ "الاقتباس يمثّل شكلا تناصيا يرتبط مدلوله اللّغويّ بعملية الاستمداد التي تتيح للمبدع أن

يحدث انزياحا في أماكن محدّدة من خطابه الشعريّ بهدف افتتاح لشيء من القرآن أو الحديث وهنا يجب أن يوضع في الاعتبار القصد النقديّ¹⁵، وإنّ القارئ الذي يؤوب قراءة وإمعانا إلى هذين البيتين الشعريين يدرك جليّا أنّ الاقتباس إنّما هو ظاهرة تنحو منحى الجماليّة والإبداعيّة بشكل كبير، فيقول الشّقراطيّسي:

مقام زلفى كريم قمت فيه علي عرجت تخترق السبع الطّباق إلى

تستكمل اللّيل بين المرّ والقفل¹⁶ عن قاب قوسين أو أدنى هبطت ولم

إنّ اللّذة الجماليّة التي تتمكّن منّا خلال قراءة هذين البيتين الشعريين تجعلنا نستحضر آي القرآن الكريم، وما أنزل في فواتح سورة النّجم، مصداقا لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (9) فَكَانَ قاب قوسين أو أدنى (10) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (11)﴾¹⁷، يجليّ الشّاعر ههنا رحلة الإسراء والمعراج التي تنقل فيها الرّسول عليه الصّلاة والسّلام على ظهر البراق من سماء إلى سماء حتّى جاوز السّموات السّبع مصوّرًا المكانة التي تبوّأها حين عرّج به إلى سدرّة المنتهى، وتجسيد المقام الرفيع الذي أحلّه الرّسول وخصّه دون غيره من الخلق فنال السيّادة، والقرب العظيم من ربّ العالمين، فقد تفنّن الشّاعر في تصوير هذه المعجزة في قالب أدبيّ أسر، وفي تنسيج لغويّ يفيض بشعريّة لغويّة أخّاذة.

كثيرة هي التّأليف النقديّة تليدها وحديثها قد أشارت بوضوح مطلق مدى تمكّن عرب فترة ما قبل الإسلام من اللّغة العربيّة، فكانوا يطاوعونها، ولا جرم أن تكون قصائد السّبع المعلّقات أجلّ تبيان لهذا الشّأن، ولكن نزل من فوق سبع سموات ما يتحدّاهم ويعجز تجاسرهم، فكان القرآن الكريم مفهما لتجبرهم، وإضعافا لقوّتهم، فقال لهم رسول الله صلّى الله عليه أن يأتوا بسورة ما استطاعوا، وقال فلتأتوا لنا بآية من مثل ما أنزل على خاتم الأنبياء والرّسل، فسوّر الشّاعر هذا الحوار في هذين البيتين البديعين، تصويرا بليغا، فقال:

عصر البيان فضلت أوجه الحيل أعجزت بالوحي أبواب البلاغة في

فنلهم عنه جبن العجز حين تلي¹⁸ سألتهم سورة من مثل حكمته

فهذا التّسيج اللّغويّ الأسر الذي نلحظه في هذين البيتين الشّعريين خصوصاً، ما كان أبداً ليصدر من نفس متكلّفة أو متصنّعة القول، وبالعكس فلن ينبثق إلّا من نفس لها من الرّهافة في الشّعور الحدّ الكبير، ولطفا في الإحساس القدر الجليّ لكلّ متلقّ حذق، وتمهّراً سامقاً في اللّغة، كلّ ذلك أسهم إسهاماً كبيراً في هيكله هذا التّسيج اللّغويّ البديع، ومن يراجع الذّكر المجيد في غير موضع واحد يجد تشخيصاً لهذه الواقعة وتبيين ذكرها، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38)﴾ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظّالمين (39)﴾¹⁹، يقوم التّناس هنا على بلاغة القرآن الكريم وقوّة وشدّة بيانه، وهو تناس يظهر عجز العرب المشركين على مجابته لهم، وضعفهم على مقارنته، فسور الشّاعر كلّ هذا في قالب لغويّ متداخل وما ورد في القرآن الكريم وما حملته الآية المذكورة من تصاقب معنويّتين تناس لفظيّ ما بين قوله الشّعريّ والآية القرآنيّة المجيدة المتناس منها، فكان، بحقّ، مبدعاً في رسم صورة شعريّة مبهرة مؤثّرة إلى حدّ بعيد.

تفاعل الشّاعر في قصيدته هاته مع الكثير من الأحداث والأماكن والشّخصيّات التّاريخيّة بشكل متقاطع مع ما ورد فيآي القرآن الكريم، ويكأنّ القارئ يجد نفسه في كثير من أبياتها يستحضر كثيراً من أيّ التّنزيل المجيد، وما ذلك إلّا لبلاغتها الأسرة، ودقيق معناها، وهذا ما منح القصيدة قوّة في التّوثيق من خلال رجوعه إلى التّاريخ والاستشهاد بأحداثه، وأكثرها وقائع قد تمّ ذكرها في القرآن الكريم، وقد جعل هذا الأمر جعل القصيدة تنبؤاً مكانة سامقة، وأنّ تغنّي أيقونة بارزة في أشعار المدحة النّبويّة، وفيها استعراض للسّيرة النّبويّة والدّعوة الإسلاميّة من بدايتها وفق أسلوب شعريّ شاعريّ مؤثّر، ومن تلكم الوقائع التي تطرّقت إليها لاميّة الشّقراطيّسيّ؛ غزوة بدر المباركة الكبرى، وهي غزوة دحض الحقّ للباطل، وكسر شوكة الشّرك والمشركين، وقال الشّاعر في ذلك:

عن صدق بذل ببدر أكرم البذل فأنفس بدّلت في الخلد إذ بدّلت من قوله:

وحملت منه صبرا غير قد أسعرت منه صدرا غير مصطبر إلى:

محتمل²⁰

ليس يخفى على القارئ اللّاح لما ورد في سائر أبيات لامية الشّقراطيّ مدى تفاعل الشّاعر مع جملة الوقائع التّاريخيّة المهمّة في التّاريخ الإسلاميّ، ومنها معركة بدر الكبرى وهي معركة أعلى الله فيها كلمته وبيّض وجه النّبي وأنصاره، وأخزى الشّيطان وأتباعه، فجملة الأبيات الشّعريّة التي نظمها الشّقراطيّ تشخيصاً لهذه الواقعة التّاريخيّة الخالدة إنّما ألّفيناها أحداثها متفاعلة وبعض آي سورة آل عمران، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ أَنْ نَقْشَلَا وَاللَّهِ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (122) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ (123) إِذْ يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَيْسَ بِكُمْ رَبٌّ لِمَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (124) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126)﴾²¹، ولما نعد إلى استظهار مواطن التّفاعل ما بين الأبيات الشّعريّة التي جاء بها الشّاعر بالآيات القرآنيّة الكريمة المجليّة لسائر وقائع غزوة بدر، يتجلّى لنا عياناً لغة شعريّة، رقيقة، مؤثّرة في شكلها العام، ممّا يصرّ لنا بوضوح مدى التّداخل النّفسيّ للشّاعر مع ما يتلقّاه من أيّ الذّكر المجيد، وهو يصرّ للقارئ تنسيجاً لغويّاً أسراً لتلك الغزوة، وبلغة تأسر أحاسيس المتلقّي ومشاعره، فكان شعر الشّقراطيّ شعراً إنسانياً بالدرجة العليا، فهو يقرب للمتلقّي إدراك دينه الإسلاميّ وفضائله الجمة وفق صيغة أدبيّة بديعة مؤثّرة.

إنّ الدّين الإسلاميّ هو دين الحياة السّويّة، فمنذ مبعث سيدنا نوح عليه السّلام إلى مبعث الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، ما كان ليصل ما وصل إليه الإسلام أيّ دين سماويّ آخر، فمعه اكتملت مساعي كلّ الرّسائل السّماويّة، فكان محمد صلّى الله عليه وسلّم خاتم الأنبياء والمرسلين، فأعزّه الله بمكانة سامقة دونما غيره من الأنبياء والمرسلين، وجعل رسالته الرّسالة الخالدة المتّمة لكلّ الرّسالات السّابقة، فكلّ هذه الأمور جعلها الشّاعر محور ما ورد في ذكر في بيت شعريّ خصّه لتبيان ما للدّين الإسلاميّ من الأثر البالغ على العالمين في تسوية نفوسهم، فخصّ نبيّ الهدى بهذه الرّسالة، فكان هاديّاً، فقال الشّقراطيّ في هذا الصّد في "لاميّته":

وأصبح الدّين قد حقّت جوانبه

بعزّة النّصر واستولى على الملل²²

لم ترَ البشريّة بعد إرسال النّبي عليه الصّلاة والسّلام أيّ رسول ولا نبيّ بعده إلى العالمين، وجعل القرآن الكريم آخر الرّسالات السّماويّة، وهو الرّسالة الكاملة، وحاشاه أن يكون ناقصاً أو يمسه تقصير، فجعل الشّاعر هذه الصّورة التّامة من أجلّ ما يختم به قصيدته تماشياً وسرده لحياة النّبي المصطفى في "لاميّة" ومدحا له، فجعل هذا البيت الشّعريّ متناصاً وقوله جلّ جلاله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾²³، فالجليّ أنّ هذا التّعاقد اللفظي، والتّماتل المعنويّ فيما بين البيت الشّعريّ والآية القرآنيّة الشّريفة يشكل صورة جماليّة إخباريّة بليغة، ولعلّ جمال اللّغة الأسلوبية التي نظم بها الشّاعر قصيدته، واتّصالها الوثيق بأيّ الذّكر المجيد جعل منها امتزاجاً لغويّاً شعريّاً أسرا يستوقف كلّ قارئ مطلع على أبيات هذه القصيدة التي تمحورت أساساً حول مدح النّبي المصطفى عليه الصّلاة والسّلام، وذكر معجزاته، وشماله المحمديّة الحميدة.

ب/ جماليّة التّناص مع الحديث النّبويّ الشّريف:

يمثّل الحديث النّبويّ الشّريف رافداً من روافد الإبداع الشّعريّ لدى الشّقراطيّسيّ فهل من منابعه وضمن تراكيبه في بناء لاميّة بصفة مكثّفة وتراتبية. فتناصت القصيدة مع السّيرة النّبويّة وتفاعلت معها بشكل لافت للنّظر، ونحن نعلم أنّه ليس ثمة ما يأتي من بعد بلاغة القرآن الكريم إلّا الحديث النّبويّ، فلذا كان يعتمد إليه كثير من شعراء الأدب الإسلاميّ على وجه الخصوص فيضمّنوا ما يحمل من بلاغة حسيّة، وتأثير مباشر في المتلقّين، ومن مواضع التّناص أبيات لاميّة الشّقراطيّسيّ والحديث النّبويّ الشّريف كثيرة، ونذكر منها هذا البيت:

مع الذّراع ونطق العير والجمل²⁴ ومنطق الذّنّب بالتّصديق معجزة

مثّلت لاميّة الشّقراطيّسيّ أنموذجاً شعريّاً سرديّاً مائزاً، فمن خلالها صوّر لنا الشّاعر بأسلوب مائز أهمّ المواقف التي عاشها النّبي صلّى الله عليه وسلّم، وحتّى أبرز معجزاته، ومنها تصديق الذّنّب بنبوّته، فاستحضر الشّاعر في بيته السّالف ذكره النّص الغائب، وهو حديث النّبي عليه الصّلاة والسّلام، وأدرج ألفاظاً منه، وكذا معناها في جوانب بيته الشّعريّ، فشكّل البيت نسيجاً شعريّاً مبهرًا، فالرسول عليه الصّلاة والسّلام كان قد أشار إلى حديث السّباع للإنس وأقرّ بأنّه شرط من أشرط السّاعة أيضاً، فقال: "والذي

نفسه بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس، وحتى تكلم الرجل عذبة صوته، وشراك نعله، وتخبره فحذه بما أحدث أهله بعده²⁵، فتداخل النصين، وهنا، شكل ظاهرة أسلوبية جمالية شعرية تأثيرية، فالشاعر في صدر البيت استحضر حديث النبي عليه الصلاة والسلام عن تكليم السباع للإنس لتبيان إحدى أبرز معجزات المصطفى النبي المختار، والتي هي قول حق صادق، من عبد صادق لا ينطق عن الهوى، وحتى أن عجز البيت حمل في ثناياه ذكرا آخر لمعجزات النبي صلى الله عليه وسلم، وهي لما اشتكى له الجمل من سوء معاملة صاحبه له، فكان هذا التداخل النصي الوشيج فيما بين اللغة الشعرية ولغة الحديث النبوي الشريف ذا دفعة شعرية جمالية تأثيرية مؤثرة في نفسية المتلقي، فتلك، أساسا، الغاية العليا للغة الشعرية المتقن تركيبها ونظمها من لدن الشعراء المتمكنين من الإبداع.

كلما عدنا إلى كتب السيرة النبوية، وحتى ما ورد في القرآن الكريم من ذكر لفضائل النبي صلى الله عليه وسلم، وتذكير بشمائله المحمدية الماثلة لتعاليم الدين الإسلامي، حتما سيجد أن هذا النبي قد ميّزه بعدد من المعجزات التي اختص بها لوحده، ولعل من أجل تلك المعجزات حينما حنّ الجذع يوم فراقه، وقد ذكرت هذه الحادثة في كثير من كتب الأحاديث النبوية الشريفة، وحتى أننا نجدها ماثلة في سائر الأشعار الإسلامية، ومن تلك الأشعار ورودها في لامية الشقراطي، فقال واصفا لتلك الحادثة المبهرة بيتا شعريا أسلوبيا جماليا أسرا:

حنين تكلّى شجتها لوعة النّكل²⁶ والجذع حنّ لأن فارقته أسفا

وليس عجيبا أن تجد الشقراطي يقتبس من بعض أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام، وهو مدرك لعظم فضل هذه الأحاديث، ولعلو شأن الحديث النبوي في تهذيب النفس البشرية، فتواتر الاقتباس من الحديث النبوي كثيرا في لامية الشقراطي، وقد توزع على أحداث مختلفة، ففي البيت السالف ذكره عن واقعة بكاء جذع النخلة عن فراقه النبي، نجد الشاعر قد استدعى حديثه صلى الله عليه وسلم، والذي روي "عن أنس؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب إلى جذع. فلما اتخذ المنبر ذهب إلى المنبر. فحنّ الجذع فأثاه فاحتضنه فسكن. فقال «لو لم أحتضنه لحنّ إلى يوم القيامة»²⁷، فما بين القول الشعري والقول المقتبس منه تداخلا لفظيا، واشتركا معنويا متواشجا الأطراف، إذ أن الشاعر كان متناصا مع قول الرسول، محاكيا له، محتذيا حذوا، نكاد نجده مطابقا له من حيث التركيب ومعنى القول معا، ولهي كثيرة

مثل هذه التناصات في القصيدة، أي؛ الاقتباس بالحديث النبوي الشريف لفظاً ومعنى، فألبس كل موضع كان مشتركاً متصافراً فيه قول الشاعر وقول النبي المصطفى زياً أسلوبياً جمالياً ازدانت به القصيدة، واكتست بحلة لغوية ذات حمولة تأثيرية لكل متلقٍ لأبياتها.

ولسنا نجد أي مؤلف ذكر السيرة النبوية ولم يتطرق إلى حادثة الغار الذي آوى النبي وصاحبه الصديق -رضي الله عنه-، وحتى أن القصائد التي كتبت تبيننا لفضائل النبي على العالمين قاطبة أن هدى الله به الناس، ولقد جرى على النبي عليه الصلاة والسلام أحداثاً ما تزال خالدة في قرآن يتلى إلى يوم الدين، وكان من أبرز تلكم الوقائع، ما جرى للنبي وصاحبه الصديق حينما كان مطارداً من قريش، فأوى إلى الغار حتى لا يعثر عليهما، ولقد كانت معجزة الغار حدثاً بارزاً في تاريخ السيرة النبوية الشريفة، فقال الشقراطي فيها:

..... وآية الغار إذ وقيت في حجب من قوله:

فما يخال خلال النّسج من والعنكبوت أجادت حوك حلتها إلى:
خلل²⁸

إنّ الشعور الإيمانيّ الكبير، والدّفقة التّفاؤليّة العظيمة التي تبثّها هذه الحادثة في نفس كلّ متلقٍ لهذه الأساطير الشعريّة يكن بعدها التّأثيريّ كبيراً، فقد صوّر الشاعر بلغة شعريّة أخّاذة ما جرى في تلكم الحادثة وبنسيج شعريّ نجدها يحمل من المناصصة ما يحمل سواء أكان من القرآن الكريم أو الحديث النبويّ، وذلك ما جعل من تلكم الأساطير الشعريّة تنزّين بلغة مبدعة جماليّة بالغة، ولعلّ القارئ المطلّع على الأحاديث النبويّة، يجد تداخلاً بارزاً فيما بين هذه الأبيات وما روي "عن ثابت بن أنس عن أبي بكر رضي الله عنه قال: «قلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»²⁹، فإنّ طغيان مثل هذه التناصات في غير موضع واحد في لامية الشقراطيّ إنّما يدلّ دلالة واضحة على مدى سعة اطلاع الشقراطيّ على الأحاديث النبويّة، وذلك، بدوره ما أسهم إسهاماً مباشراً في دمج كثير من أبياته الشعريّة في "لاميته" مع ما ورد من أحاديث نبويّة بليغة مؤثّرة يتغيّا بها من باب الاقتباس تتميق لغته الشعريّة، وإلباسها أزياء

جمالية فنية تسترعي انتباه المتلقي، ومن ثم التأثير فيه، وتيك أبرز غايات الشعر خاصة، والأدب عامة.

تباينت منزلة الأنبياء والرسل عند الله سبحانه وتعالى، فكان منهم صفى الله، ونبىه، وقريب الله، وذبيح الله، وحبیب الله، فأما هذا الأخير فإنه خاتم الأنبياء والرسل، فنال عند ربّه منزلة خاصة، ومن يقرأ كثيرا من آي الذكر المجيد يلجلى، وهذا الذي أشارت إليه، أيضا، كثير من الأشعار والدواوين الشعرية قديمها وحديثها، ولعل من أبرز أفضال هذا النبى الحبيب والرسل الهادي لسبيل الرشاد عليه الصلاة والسلام شفاعته لأمته يوم الحشر، واستجابة رب العالمين لشفاعته، ولم يغفل الشقراطيسي عن ذكر هذه الحادثة العظيمة، فرسمها بلغة أدبية رائعة راقية ذات بعد وجداني إنساني مؤثر، فقال الشقراطيسي في "لاميته" واصفا هذا الموقف:

يسمع وسل تعط واشفع عائدا وسل³⁰ قم يا محمد فاشفع في العباد وقل

إن الذي يدهشنا، حقًا، أمام هذا التنسيج اللغوي الشعري مدى براعة الشاعر في تحبير هذا البيت الشعري وتدبيجه بأساليب إنشائية بديعة، ودمجها مع بعض في بيت شعري واحد، فكان لذلك بعدا تأثيريًا بالغًا في متلقيه، ولعل القارئ المطلع على مجمل ما روي من أحاديث نبوية تتحدث عن الشفاعة، ليس يجد نفسه إلا مستحضرا ما روي "عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في دعوة، فرفعت إليه الذراع -وكانت تعجبه- فنهس منها نهسة وقال: أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون بمن يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، (...)، فيقول بعض الناس: أبوكم آدم.

فيأتونه فيقولون يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة. ألا تشفع لنا إلى ربك؟ (...)، انتوا النبي صلى الله عليه وسلم. فيأتوني، فأسجد تحت

العرش، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، واشفع تشفع، وسل تعطه»³¹، فإن هذا التضافر الوشيج فيما

بينما وجدناه من قول شعري بليغ من لدن الشاعر وما روي في الحديث النبوي عن الشفاعة؛ شفاعته رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته، تراه المتلقي يشيد بمدى براعة الشاعر في توظيفه لعنصر التناص، ولعل ذلك يعود أساسا إلى مدى سعة اطلاعه بمختلف أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وهو ما أكسبه زادا

لغويًا وظّفه في شعره توظيفًا يتغيّر به تقريب صورة الإسلام السّمحى لكلّ متلقٍ، ودعوته إلى حبّ الرسول المصطفى، وكلّ ذلك في قصيدة كان مدارها مدح خير البريّة وخير ولد آدم.

ج/ تأثيريّة التّناص مع كتب السّيرة النّبويّة:

ليست بنا حاجة إلى إعادة ما ذكرناه حول مواضع التّناص في القصيدة مع آي القرآن الكريم والحديث النّبويّ الشريف، فذاك حديث قد بيّناه، ولكن القارئ الحصيف المطّلع على ما هو مبثوث في ثنايا لامية الشّقراطيّ يتّضح له مدى استدعاء النّصوص التّراثيّة المتطرّقة للسّيرة النّبويّة، وهياالمسمّاة بكتب السّيرة النّبويّة، فقد كثرت المواضع التي ألفينا فيها تداخلًا نصّيًا، أو تفاعلًا نصّيًا فيما بين الأبيات الشّعريّة المشكّلة للامية، وكثير من الأحاديث والأحداث المدوّنة في كتب السّيرة النّبويّة، وما ذلك إلّا لشدّة أهميّة هذه الأخيرة، كونها تمثّل المرجع الثّالث للشّعراء الذي ينظمون في المدحة النّبويّة بعد القرآن الكريم والأحاديث النّبويّة الشّريفة.

كثرت المواضع في قصيدة الشّقراطيّ التي مدح فيها الرّسول عليه الصّلاة والسّلام وإنّا وجدناها تعجّ بكثير من الأقوال التّاريخيّة المدوّنة في كتب السّيرة النّبويّة، وما ذلك إلّا لأهميّة هذه النّصوص في خدمة قصيدة المدحة النّبويّة، وأيضا كونها نصوص تاريخيّة تحكي ما جرى للنّبّي عليه الصّلاة والسّلام من قبل ولادته إلى وفاته عليه الصّلاة والسّلام، وإنّا نذكر من تلك المواضع المبثوثة في ثنايا لامية الشّقراطيّ، قوله:

بشرى الهواتف في الإشراق والطفل³² ضاءت لمولده الآفاق واتّصل

لقد اتّخذ الشّقراطيّ في مدحه الرّسول أحاديث السّيرة النّبويّة مرجعا مهمّا، فقد نهل منها لكونها ضاربة في جذور التّاريخ الإسلاميّ، فقد كانت كثير من أبيات القصيدة مستقاة من كتب السّيرة النّبويّة، فمثلا في البيت هذا، والذي محوره تذكير بمولد النّبّي صلّى الله عليه وسلّم، وما حدثت في من خوارق، إنّما نجده يقع في حيز التّناص مع ما وجدناه مذكورا في سيرة ابن هشام عن النّبّي صلّى الله عليه وسلّم، ومنها قول ابن هشام: (...) أن نفرا من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قالوا له: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك. قال: «نعم أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخي عيسى ورأت أمي حين حملت بي أنّه

خرج منها نور أضاء لها قصور الشام».³³، فنكاد نجد المعنى نفسه فيما بين البيت الشعري والحديث الذي قدّمه ابن هشام في سيرته، إذ راح الشاعر يستحضر حديث ابن هشام مستلهما من خلاله أجلّ المعجزات التي حدثت حينما ولد نبيّ الهدى عليه الصّلاة والسّلام، فكان لهذا التّفاعل فيما بين النّصين بعدا جماليّا تأثيريّاً في القراء، والمتلقّين بشكل عامّ، فقد كنّف دلالة البيت الشعريّ من خلال ألفاظ شعريّة بديعة جماليّة بليغة، فتناسجت فيما بينهما لتتشكّل وحدة متقنن التّركيب فيها.

ما قرأ قارئ عن سيرة النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام إلّا ويجد نفسه قد استطابت حلاوة لما تقرأه، فطلّت كتب السيرة النّبويّة الشريفة زادا تاريخيا خالدا لمكارم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، بعد الذي هو محفوظ في كتاب التّنزيل المجيد وكتب الأحاديث النّبويّة على غرار الصّحّاحين، فكان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يبشّر وينذر أصحابه ممّا ينزل عليه من آيات شريفات، وكان القرآن الكريم كلاما مؤثرا وقعه في النّفس أنفع من البلسم على الجراح، وأشدّ طلاوة وحلاوة وقعه في آذان سامعيه، ولكن عرف في حياة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من ادّعى النّبوة، وبأنّه ينزل عليه من السّماء وحي يشابه ما ينزل على نبيّ الهدى، وقد حدّر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم منه، فراه من أعداء الله؛ وهو مسيلمة الكذاب، فقد روى الشاعر في لاميّته تشخيصا عن هذا الأفاك الأثيم، فقد تقنّن الشاعر في إظهار وجهه القبيح ومختلف الوقائع التي هو محورها، فقال الشّقراطيّ:

بعي غي فلم يحسن ولم يطل ورام رجس كنوب أن يعارضه من قوله:

لبس من الخيل أو مسّ من كأنّه منطق الورهاء شدّ به إلى:

الخبيل³⁴

من يكون مطّلا على كتب السيرة النّبويّة ربّما ليس يخفى عليه ذكر لحادثة مسيلمة الكذاب، فجّل الكتب قد بيّنت هذه القصة فمنها ما كانت في ذكر مطّول، وأخرى ذكرتها في شكل تلميحات، وما ألفيناه ذاكرة لقصة مسيلمة؛ الطّبريّ في تاريخه، وذلك في خضمّ حديثه عنه تاريخ الرّسل والملوك، ووما ذكره في قصة هذا الكذاب الأثيم، ذكره بأنّ "وفد بني حنيفة أتوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وخلفوا مسيلمة في رجالهم؛ (...) قال: ثمّ انصرفوا عن رسول الله وجاءوا مسيلمة بما أعطاه رسول الله؛ (...)"، ثمّ جعل يسجع

السَّجَعَات، ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن: «لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشى...»³⁵، فمن المفيد أن يعرف القراء أن الشاعر في لاميته يكاد يكون مفرغا كل أحاسيسه الصادقة ومشاعره النبيلة اتَّجَاه نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، فحينما تجده فرحا بمولده، وحينما مدافعا بحرفه عنه، وحينما آخر غيورا على شخصه الطاهر الشريف، ومن يقرأ النَّصِّين فحتما سيجد ثمة تقارب نصيٍّ بارز فيما بينهما، إذ استحضر الشاعر ما رواه الطَّبْرِيّ في قصّة مسيلمة الكذاب مدعّما به أبياته الشعريّة، إذ كان توصيف قول الطَّبْرِيّ لقصّة مسيلمة الكذاب بمثابة المفصل لأحداثها، فلم يكن من الشَّقْرَاطِيسِيّ إلّا يدعم ذكره لهذه القصّة بما ذكره الطَّبْرِيّ، نظرا لإمامه الواسعة بحيثيّاتها، فكان فعل التناص، وهنا، فيما بين أبيات القصيدة وقول الطَّبْرِيّ فيه من التّوالج والتّداخل اللفظيّ والمعنويّ الحدّ الكبير، وهو ما جعل من الأبيات الشعريّة تكاد تكون تشخيصا دقيقا لقصّة مسيلمة الكذاب، ونصرا للنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبأنّه لا ينطق بالخزعبلات، وحاشاه أن ينطق بها، وإنّما هو رسول الله وما ينطق عن الهوى إنّما هو وحي يوحى.

ولو أمعنا النظر في لاميّة الشَّقْرَاطِيسِيّ فإنّنا نجد أنفسنا أمام نصّ شعريّ هو بمثابة نصّ سرديّ ذو أبعاد فنيّة جماليّة آسرة تروي ما جرى للنَّبِيِّ عليه الصّلاة والسّلام قبل ولادته إلى أن وافته المنيّة، ولكن هذه القصيدة لم تقف فقط عند ذكر خصال النّبِيّ، فحسب، بل إنّنا ألفينا الشَّقْرَاطِيسِيّ في مواضع مختلفة يستجلي فضائل الصّحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين، وكان من أبرز من ذكرهم الصّحابيّ بلال بن رباح -رضي الله عنه- وما لاقاه من أذى من قبل رأس الشّرك والضّلال أميّة بن خلف في بطحاء مكّة وهو ينكّل به ويعذّبه حتّى يرجع عن دينه، فسوّر الشاعر هذه الواقعة في لاميته بشكل أدبيّ مبهر مؤثّر، فيقول الشَّقْرَاطِيسِيّ:

أحلّه الصّبر فيه أكرم النّزل لاقى بلال بلاء من أميّة قد من قوله:

قد قد قلب عدو الله من قبل³⁶ إن قد ظهر وليّ الله من دبر إلى:

لن تجد أيّ مؤلف حكى الأحداث التي جرت في سيرة النّبِيّ وتجده مغفلا قصّة مؤذن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام مع المشرك أميّة بن خلف، كان سيده قبل أن يعتقه أبو بكر الصّديق، وصار من

خير الصحابة رضوان الله عليهم، ولقد ذكر قصة بلال بن رباح ابن هشام في سيرته، مشخصاً ما جرى لبلال من قبل أمية بن خلف، فقال: "قال ابن إسحاق: وحدثني هشام بن عروة، عن أبيه، قال: كان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب بذلك، وهو يقول: أحد أحد فيقول [معه]: أحد أحد والله يا بلال، ثم يقبل على أمية بن خلف ومن يصنع ذلك من بني جمح، فيقول: أحلف بالله لئن قلتموه على هذا لأتخذنه حناناً حتى مر به أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوماً وهم يصنعون ذلك به، (...)، قال: أنت الذي أفسدته، فأنقذه مما ترى فقال أبو بكر: أفعل عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك أعطيكة به، قال: قد قبلت قال: هو لك فأعطاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه غلامه ذلك، وأخذه فأعتقه"³⁷، فمن تراه يقرأ النصين معاً، إنما يتضح له مدى التواشج الكبير فيما بينهما، فلقد عمد الشُّقراطيّ وهو في غمار حديثه عن تضحيات صحابة رسول الله نصرته للإسلام ودفاعاً عن نبيهم صلى الله عليه وسلم، وثباتهم أمام العذاب بكل صوره، أن يستحضر ما رواه ابن هشام عن بلال بن رباح وما لاقاه من تعذيب وتكيل على يد أمية بن خلف، فكانت مواضع التناص بين النصين لفظية ومعنوية ما وفقاً وسياق ذكرها من لدن الشاعر وحديثه عن التضحيات الجسام من الصحابة رضي الله عنهم ابتغاء وجهه جلّ وعلا، فكان هذا التفاعل النصي وفق لغة منمّازة ببعدها الجماليّ التأثيريّ ذا سمة فنيّة مبهرة لكلّ متلقٍ لتلكم الأبيات الشعريّة البديعة، فكانت، بحق، بياناً جلياً على مدى البراعة الفنيّة الشعريّة للشُّقراطيّ في فن المدحة النبوية.

د/ التناص من الدواوين الشعريّة:

لما جئنا نتحدث عن شعر المدائح النبوية كان أبرز ما استوقفنا في كثير من هذه النصوص الشعريّة غزارة توظيف عنصر التفاعل النصي من لدن شعراء المدحة النبوية، وكان من أهم ما يقع فيه التناص في قصائد المدحة النبوية المناصصة من الأشعار الإسلامية السابقة، وما ذلك إلا لقوة بلاغتها، وجماليّات توصيفها، ومن المواضع التي التمسنا الشُّقراطيّ يتناص فيها مع أبيات شعريّة أخرى سبقت عصره، قوله:

خير البريّة من بدو ومن حضر

وأكرم الخلق من حاف ومنتعل³⁸

يتدخل، وهنا، النص الحاضر مع ما وجدناه مماثلاً في النص الغائب، والذي قاله شاعر الرسول؛ حسان بن ثابت -رضي الله عنه- وذلك في مدحه لرسول الله، وتبيان فضائله ومحاسنه الحميدة، فكان مدحا بديعا، يحمل في ثناياه من رقي اللغة ما يلبسها كساء جمالياً إبداعياً تأثيرياً بالغاً، فقال حسان بن ثابت:

وأحسن منك لم تر قط عيني

وأجمل منك لم تلد النساء

خلقت مبراً من كل عيب

كأنك خلقت كما تشاء³⁹

إنّ التّضمين والاقْتباس ظلاً أبرز ما انمازت به لاميّة الشّرقاطيسيّ من مستهلها إلى آخر بيت ورد فيها، ولعلّ الشّواهد السّالفة التي ذكرناها أجّل دليل لما نقول الآن، وحتىّ أنّ البيت السّابق الذي نظمّه الشّرقاطيسيّ مدحا للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وجدناه متداخلاً وما قاله أيضاً شاعر الرسول حسان بن ثابت -رضي الله عنه-، وكان تفاعلاً نصيّاً من حيث تداخل ألفاظ البيتين الشّعريين اشتراكاً جليّاً من حيث القرائن اللّغويّة، فتجربة الشّرقاطيسيّ الشّعريّة لا جرم أن تكون متأثرة ومؤثرة، وكان أبرز من نهل الشّرقاطيسيّ من أشعارهم، الشّعراء الذين ناصروا المسلمين، ومن دافع عنهم عن الإسلام وأهله، وكان أولهم شاعر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ حسان بن ثابت، فالثناء عن الجمال الخلقيّ والخلقيّ للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان موضع التّلاقّي فيما بين الشّرقاطيسيّ وحسان بن ثابت، فاستحضر أولهما كيف كان مدح حسان بن ثابت للرسول عليه الصّلاة والسّلام، فأبدع في توظيفه من باب التّناس، فزّين به نظمه، وكساه بنسيج بديع بليغ يمتّع المتلقي ويستمتع به.

وما يزال التّاريخ يذكر معجزات نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم، ومكارمه الفضلى التي اختصّ بها دونما سواه من الخلائق أجمعين، تزكّية من ربّ العالمين لعبده الصّادق الأمين عليه الصّلاة والسّلام، وكثيرة هي المؤلّفات الأدبيّة التي أطالت حديثاً عن تلك المعجزات التي كانت تحدث مع سيدنا محمد عليه الصّلاة والسّلام، فكان حيناً يردّ بها شرّاً، وحيناً آخر يهدي بها قلباً بإذن الله، وحيناً آخر تتفع النّاس نفعا جزيلاً، وكان من المعجزات التي جعلت أمّ معبد تذهل من رؤيتها عياناً لمّا مسح بكفّه الشريف صلّى الله عليه وسلّم على ضرع شاتها الجاف، وهي الشاة الهزيلة، فأمدّتهم بإذن الله حليباً فشرب هو وصاحبه

الصديق -رضي الله عنه- وغادرا منزلها، ولم تعرف أنه نبي الهدى، الرحمة المهداة، فكانت هذه المعجزة خارقة عند البشر، ولكن الله جعل لنبيه صلى الله عليه وسلم آيات للعالمين ولأولي النهى حتى يزدادوا يقينا بصدق رسالته ودعوته، ولقد صوّر الشّقرطيسيّ هذه الحادثة في أسلوب أدبيّ متقنّ التراكيب، مبدع السبك والحبك، وبه يكاد يدمج المتلقّي في نصّه، هذا، ويكأنه يعيش اللحظة، فكان تنسيجه الشعريّ بليغا مؤثرا، فيقول الشّقرطيسيّ توصيفا لقصة الشّاة:

جهد الهزال بأوصال لها قحل
والشّاة لما مسحت الكفّ منك على

فروت الرّكب بعد النّهل بالعلل⁴⁰
سحت بدرّة شكرى الصّرع حافلة

لو اطلع مطلع على الأشعار التي كان ينظمها حسّان بن ثابت -رضي الله عنه- نصرة للإسلام والمسلمين، وتبياناً لفضلهم على سائر الأمم الأخرى، وعلوّ شأن أهل الإسلام بين سائر الأديان الأخرى، وذكره أيضا عن معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتما سيجد نفسه أمام قلم شعريّ لا ينضب مداده ألبتّة هو يكتب شعرا بجوارحه الصادقة، في بنية شعريّة بديعة النّظم، وقد كانت حادثة شاة أمّ معبد من أبرز المعجزات التي تقنّن شاعر الرّسول حسّان بن ثابت -رضي الله عنه- في نقلها بصورة أدبيّة بديعة فقال:

فإنّكم إن تسألوا الشّاة تشهد
سلوا أحتكم عن شاتها وإنائها

له بصريح ضرة الشّاة مزبد⁴¹
دعاها بشاة حائل فتحلبت

ثمّة تداخل نصّيّ جلّيّ فيما بين النصّين، والألفاظ المتكرّرة في الأبيات الشعريّة تجلّي ذلك بوضوح فيما ذكره الشّقرطيسيّ، وما ذكره حسّان بن ثابت -رضي الله عنه- فلمّا كان الشّقرطيسيّ في مقام تعداد معجزات رسول الهدى استحضر قصة شاة أمّ معبد، ومستحضرا معها ما قاله شاعر الرّسول وهو يبيّن عظيم فضل تلكم الحادثة على كلّ مؤمن مسلم، ويقينه المطلق بنبوة محمد عليه الصّلاة والسّلام، وإلاّ ما كان ليحصل ما حصل، فرسول الله ما دعى ربّه دعوة إلّا واستجابها له، ولقد تجلّى لنا التّداخل النصّيّ البديع فيما بين النصّين عيانا، وكان لذلك التّفاعل فيما بينهما أثرا بالغا في المتلقّين، والحثّ على تقليب صفحات الموروث الشعريّ العربيّ الإسلاميّ الزّاهر بالقيم الإنسانيّة، والرّاميّة

إِلِالتَّصْدِيقِ المَطْلُوقِ والْيَقِينِي بنِي الرِّحْمَةِ، والتَّعَلُّقِ بتعاليم الدِّين الإسلاميِّ الحنيف، والائْتِمَارِ بأوامره والانتِهاءِ عند نواحيه، وتلك غاية إنسانيَّة أخلاقيَّة عهدناه في الأدب العربيِّ.

وعليه، وممَّا سبق ذكره في كلِّ موضع من مواضع البحث، نقف على خلاصة موجزة، وهي أنَّ لاميَّة الشُّقْراطيسيِّ قصيدة بديعة النِّظْم، بليغة القول، حسنة السِّبْكِ وتتميِّز بحضور تفاعلات نصيَّة كثيرة وذلك لكثافته وتنوُّعه ما بين التَّنَاصِ الدِّينيِّ والأدبيِّ والتَّاريخيِّ، وهو ما منح القصيدة قيمة أدبيَّة وفنِّيَّة كبيرة.

ولقد كان التَّنَاصِ الدِّينيِّ والتَّاريخيِّ أبرز ما وجدناه متجليًا في لاميَّة الشُّقْراطيسيِّ، وكان متركِّزا أكثر في التَّنَاصِ مع القرآن الكريم، والحديث النَّبويِّ، لكونهما المصدر الأوَّل الذي ينهل منه الشُّعراء العرب بدءًا من أدب العصر الإسلاميِّ إلى عصرنا هذا، وما ذلك إلَّا لقوَّة الألفاظ فيهما، وسموق بلاغتهما، وشدَّة تأثيرهما في المتلقِّين، فكان هذا دافعًا للشُّقْراطيسيِّ في أن ينهل منهما وفق ما يخدم مواضع قصيدته الشُّعريَّة التي خصَّها لمدح رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم، وإنَّا نراه قد وَّفَّق إلى حدِّ كبير في توظيف أيِّ الذِّكر المجيد والأحاديث النَّبويَّة في غير موضع واحد في قصيدته وهو ما زادها رونقًا وألبس أبياتها أزياء من الفنِّيَّة المؤثِّرة في المتلقِّين.

ولم يحصر الشُّقْراطيسيُّ اتِّكائه على عنصر التَّنَاصِ فقط مع القرآن الكريم والحديث النَّبويِّ الشَّريف، وإنَّما تجاوز ذلكم حدَّ إدراج كثير من النِّصوص التي رويت في كتب السِّيرة النَّبويَّة، وحتَّى نصوصًا شعريَّة لشُعراء إسلاميِّين سابقين، على غرار اقتباسه لكثير من أبيات شعر شاعر الرِّسول؛ حسان بن ثابت -رضي الله عنه-، وحصل بذلك على تقوية معنويَّة ولفظيَّة لقصيدته الشُّعريَّة البديعة، وزادها غناء لغويًّا أسلوبيا بديعا، فبالتَّالي يكون الشُّقْراطيسيِّ قد تَفَنَّن في توظيف عنصر التَّنَاصِ مع كتب السِّيرة النَّبويَّة الشَّريفة، ومن دواوين الشُّعر العربيَّة الإسلاميَّة السَّابقة، وهو ما زاد من جمال لاميَّة المادح بها الرِّسول صَلَّى الله عليه وسلَّم.

مراجع البحث:

- 1- أحمد أمين، ضحى الإسلام، (د.ط)، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 2008، ج1، ص 15.
- 2- عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد (متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها)، (د.ط)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص 82.
- 3- مصطفى عبد الغني، اتجاهات النقد الروائي المعاصر، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2001، ج1، ص 97.
- 4- طارق مندور، نظرية مندور النقدية، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2013، ص 15.
- 5- عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد (متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها)، ص 162.
- 6- ابن سناء الملك، فصوص الفصول وعقود العقول، تحقيق ودراسة محمد عبد الجواد وإشراف صلاح الدين الهادي والمراجعة والاعتناء به مختار دغباح، ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005، ص 307.
- 7- عبد الله كنون، أدب الفقهاء، (د.ط)، دار الكتب العلمية، لبنان، 1871، ص 153.
- 8- أبو العباس سيدي أحمد بن عمار، نحلة اللبيب في الرحلة إلى الحبيب، (د.ط)، مطبعة فونتانة، الجزائر، 1902، ص 117.
- 9- جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، ط2، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب، 1982، ص 21.
- 10- نهلة فيصل الأحمد، التفاعل النصي التناسية النظرية والمنهج، ط 1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ص 249.
- 11- يوسف بن اسماعيل النبهاني، المجموعة النبّهانية في المدائح النبوية، (د.ط)، دار الفكر، (د.ت)، مج 3، ص 198.
- 12- سورة الأعراف، الآية: 157.
- 13- يوسف بن اسماعيل النبهاني، المجموعة النبّهانية في المدائح النبوية، مج 3، ص 198.
- 14- سورة الصّف، الآية: 6.
- 15- محمد عبد المطلب، قراءات أسلوبية في الشعر الحديث، ط1، ص 163.
- 16- يوسف بن اسماعيل النبهاني، المجموعة النبّهانية في المدائح النبوية، مج 3، ص 201.
- 17- سورة النّجم، الآية: 11/1.
- 18- يوسف بن اسماعيل النبهاني، المجموعة النبّهانية في المدائح النبوية، مج 3، ص 202.
- 19- سورة يونس، الآية: 39/38.
- 20- يوسف بن اسماعيل النبهاني، المجموعة النبّهانية في المدائح النبوية، مج 3، ص 207/204.
- 21- سورة آل عمران، الآية: 127/122.
- 22- يوسف بن اسماعيل النبهاني، المجموعة النبّهانية في المدائح النبوية، مج 3، ص 209.
- 23- سورة المائدة، الآية: 3.
- 24- يوسف بن اسماعيل النبهاني، المجموعة النبّهانية في المدائح النبوية، مج 3، ص 199.

- 25- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، ط2، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1978، ج1، ص 2278.
- 26- يوسف بن اسماعيل النبهاني، المجموعة النبّهانيّة في المدائح النبويّة، مج 3، ص 199.
- 27- أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة، سنن ابن ماجة، حقّق نصوصه، ورّقّم كتبه، وأبوابه، وأحاديثه، وعلّق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، (د.ط)، مطبعة دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة مصر، (د.ت)، ج1، ص 455/454.
- 28- يوسف بن اسماعيل النبهاني، المجموعة النبّهانيّة في المدائح النبويّة، مج 3، ص 200.
- 29- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ط1، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - بيروت، 2002، ص 898.
- 30- يوسف بن اسماعيل النبهاني، المجموعة النبّهانيّة في المدائح النبويّة، مج 3، ص 210.
- 31- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ص
- 32- يوسف بن اسماعيل النبهاني، المجموعة النبّهانيّة في المدائح النبويّة، مج 3، ص 199.
- 33- أبو محمد عبد الملك بن هشام، سيرة النبيّ صلى الله عليه وسلّم، مج 1، إعداد فتحي أنور الدابولي، ط1، دار الصحابة للتراث بطنطا للنشر والتوزيع، القاهرة مصر، 1995، ص 216.
- 34- يوسف بن اسماعيل النبهاني، المجموعة النبّهانيّة في المدائح النبويّة، مج 3، ص 202.
- 35- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري تاريخ الرّسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، مصر، 1969، ص 138/137.
- 36- يوسف بن اسماعيل النبهاني، المجموعة النبّهانيّة في المدائح النبويّة، مج 3، ص 204/203.
- 37- أبو محمد عبد الملك بن هشام، سيرة النبيّ صلى الله عليه وسلّم، مج 1، ص 401.
- 38- يوسف بن اسماعيل النبهاني، المجموعة النبّهانيّة في المدائح النبويّة، مج 3، ص 198.
- 39- ديوان حسان بن ثابت، شرحه وكتبه هوامشه وقدم له عبدأ مهنا، ط2، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، 1994، ص 21.
- 40- يوسف بن اسماعيل النبهاني، المجموعة النبّهانيّة في المدائح النبويّة، مج 3، ص 200.
- 41- ديوان حسان بن ثابت، ص 59.